الغربة- رؤية مُختلفة

كارولين طورانيان
كاتبة، حائزة على ليسانس بالجندر، مترجمة شفوية وناشطة في المجتمع المدني

الغربة انواع عديدة، منها أن يشعر الانسان انّه في غربة في وطنه حيث لا يوجد أبسط الحقوق للانسان. لا تُفاضِل هذه المقالة بين الحياة في الوطن او خارج الوطن، تسعى لنقل رؤية حول التحدّيات التي يواجهها الإنسان خارج وطنه.

في وطن جديد وغريب تُصاب أولا بالدهش للترتيب والنظافة والنظام والقوانين والحقوق، هذه نعرفها كلنا. تُحاول أن تندمج في المجتمع، وبعد فترة تكتشف أنّك انسان مجهول، في أقسى حدود الغربة لا تعرف أحدًا ولا أحدٌ يعرفك سوى عائلتك الصغيرة. تُحاول ان تُقيم الصداقات، ولكنك تجد أنّ مَن حولك له اهتمامات سطحيّة فلا يُروى غليلك. تحِنُّ الى الوطن وتتابع مسيرتك.

تبحث عن انتمائك الأول والأخير، كنيستك، فلا تجده. تُحاول الاندماج مع كنائس أُخرى تجد أنّ الناس عامّة فيها منغلقةٌ على وجوه اعتادتها، وعلى لغة أُمٍّ لا تحكي سواها، وأنّها لا تنفتح على الغرباء. ربما تشعر بنفسك مشرّدًا من كنيسة الى أُخرى تُحاول أن تعيد رسم نفس الخارطة التي كانت لك في الوطن وتفشل. ربما يكون تعلّم اللغة الجديدة سهلٌ عليك، وفهم المجتمع صعبٌ، ولكن مثير للاهتمام. ولكن هل من السهل التعرّف على العقليّة السائدة والاندماج معها، والشعور بأنّك إنسان مقبول من أهل البلد الجديد إذا كان هذا البلد وثقافته مُختلفَين تمامًا عن ثقافتك وثقافة المجتمع والوطن الذي أتيت منهما؟ فمثلاً، قد يُصدم الإنسان بأنّه لا يوجد أي قيمة للدين المسيحيّ في بلد علمانيّ مائة في المائة، لا بل تُزدرى عدة عادات وقِيَم ورموز مسيحية فيه بشكل او بآخر الى ان يشعر المرء انّه كمسيحي مشرقي هو درجة ثانية او ثالثة في هذا البلد او ذاك. هذا طبعاً عدا تحدّيات إيجاد سكن والعمل وتعديل الشهادة وتربية الأولاد، في بلادٍ الحرّيةُ فيها واسعة والثقافة العامة للجنس، بما يتضمّن الجنس المثليّ، هي انه مباح وهو ما يتناقض مع القيم التي اعتاد عليها الأهل. هنا يمكن للانسان أن يجد عملًا ويأكل ويشرب، ولكن عليه أن يعي أنّ الخارطة هنا مختلفة كل الإختلاف عن الخارطة في الوطن والتحديات مُختلفة، لذا على الاستعداد النفسيّ أن يكون قويًا ومُختلفًا.

هذا البلد غريب، والحياة فيه غريبة. والشعور بالغُربة ممكن أن يطول جداً إذا لم يجد الانسان كنيسة تحتضنه وترعاه. المُشكلة ليست أنّه بلد علمانيّ فيه حقوق للجميع بل انّه يعمل على محوِ كلّ ما له علاقة بالدين المسيحيّ. في الحضانة مثلا يقرأون للأطفال الصغار جداً قصص أمير تزوج بأمير وعاشا بسعادة، وقصة أميرة تزوّجت بأميرة وعاشتا بسعادة. انا مع حقوق كل الناس ومع حقّ حرّية اختيار الشريك من أي نوع اجتماعيّ كان، في بلد علمانيّ يدّعي احترام حقوق الكلّ. ولكن اعتقد ان هناك مشكلة كبيرة حيث حقوق البعض تقوم على حساب حقوق آخرين حيث الدولة تُساعدهم بأُمور، وتُشتّتهم وتعمل على إلغاء وجودهم بأُمور أُخرى.

والمدارس، لها، ضمن برنامجها في التوعية الجنسية، تأثيرا كبيراً على المراهقين بحيث أنها هي التي تؤثر على مفهوم التعاطي الجنسي عند القاصرين بحيث يمكن أن يأخذ حيزًا كبيرًا عندهم بسبب الثقافة العامة وثقافة الأغلبية وبسبب الايديولوجيات المُسَيّسَة التي يدخلونها في المناهج الدراسية. هناك أيضاً تشجيع على ممارسة الجنس، موجود في المدرسة باسم التوعية الجنسيّة بحيث يُشجع الشاب والشابة على اختيار الشريك بحرّية، بشكل يُشجّع الشاب على علاقة جنسية مع فتاة او مع شاب، والأُنثى كذلك تُشجَّع على اختيار شريك جنسي شاباً كان او أُنثى في عمرٍ كلّ شيء آخر فيه متاح وممكن، وفي بلد لا يجد فيه الشباب مُثُلاً عليا إلّا نادراً.

ألإعلام يتحدّث عن أن الصحة النفسية عند العديد من الشباب ساءت أكثر خلال العقود الاخيرة. عدد المراهقين الذين يُعانون من مشاكل نفسيّة-جسديّة أصبح ضُعف العدد من سنة ١٩٨٠. ونصف عدد المراهقين في عمر الخامسة عشرة يُعانون من هذه المشاكل. هناك طبعاً عدة عوامل تؤثر على صحة المراهق النفسية-الجسدية، مثل فترة الطفولة وقرب العلاقة مع الأهل خلال هذه الفترة، تشجيع الأهل للطفل على أخذ خطوات صوب استقلال أكبر

عنهم مع محافظة كل فريق على دوره، كيفية تعاطي الأهل مع مشاكل المراهقة والحرّية والاندماج في بلد علمانيّ، خاصة إذا كانت العائلة مشرقيّة. هل هو تعاطٍ سلطوي أبويّ أم هو تعاطٍ من خلال الحوار، والحضور الكافي، والمشاركة، والتوعية.

الجينات الوراثية تؤثر ايضاً على صحّة المراهق النفسية-الجسدية مع ظروف العائلة الاجتماعية والاقتصادية وما يمكن ان تسبّبه من مشاكل. يمكن أن تكون الحالة النفسية للمراهق مؤقّتة، وجزء من الحياة، فيتخطّاها فيما بعد، ويمكن أيضاً أن تبقى معه كلّ العمر. ما أُريد أن أقوله، على الأقل بالنسبة لحياة المسيحيين القادمين من بلدان عربية، أنّ أحد العوامل الذي يؤثر على الصحة النفسيّة-الجسديّة للمراهقين، وهو عامل مهمّ جداً، هو إختلاف ثقافة القادمين الجدد عن ثقافة البلد وما يسببه هذا الاختلاف من إشكاليات مهمّة خاصّة في البداية، بحيث يتطلّب هذا الاختلاف من الأهل حضورًا كبيرًا في حياة الأولاد ووعيًا ومستوىً عاليًا من الفهم والثقافة والتفهُّم لحياة المراهقين الصعبة، مع التوجيه، والصبر، والارشاد، والحبّ. إذا لم يكن الأهل بحجم المسؤولية من الممكن أن يضيع الأولاد بين ثقافة الحرّية وثقافة التقاليد، وينجرّون وراءَ عادات غريبةٍ او أسلوب حياةٍ غريبٍ عن القيم المسيحيّة، وهذه العادات لن تعطيهم -برأيي- سوى الفراغ والقلق والتعب النفسي ممّا يمكن أن يدفعهم الى ردات فعل أكبر او ضياع أكبر.

في بلد لا تجد فيه لا المرأة ولا الرجل من يتمثّلون بهم في خَلق حياة جديدة ومناسبة ولائقة بمن يحبون الربّ، عليهم ان يتمثّلوا بالرب نفسه والقدّيسين. هناك عائلات كثيرة من أصحاب البلد وغيرهم يعيشون حياة مادّية حيث يعمل الرجل والمرأة ثماني ساعات في اليوم والأولاد يحصلون على التربية من المدرسة التي وضعت لها الحكومة منهاجًا خاصًا فيها للتربية والتعليم. وفيما الأهل متلهّون في العمل يُعوّضون أبناءهم بالهدايا والسفر والمال. والبعض منهم ليسوا سعداء، يتحدثون أنه ينقصهم شيء مهمّ، بينما هم مكتفون ماديًا. هناك عدد من العائلات السويديّة الأصل، يزداد من حين لآخر، تختار أن تخرج من هذه الدوامة، دوامة العمل الكثير من أجل استهلاك أكبر، والركض بين العمل ومسؤوليات البيت ونشاطات الاولاد المتعددة، وأن تعيش أقرب إلى الطبيعة، إلى الزراعة الى حدٍّ ما، ويَحُدّون من مشترياتهم الى حدٍ كبير، بحيث تصير حياتهم مختلفة تماماً عن حياة الأكثرية، وهذا يكون بحثًا عن الفرح والسعادة وحياةٍ منسجمةٍ أكثر مع الذات ومع الطبيعة.

يضطر الرجل والمرأة من القادمين الجدد أحيانا كثيرة الى العمل معًا ثماني ساعات في اليوم ويأتون للبيت منهكين لا طاقة لهم للاولاد لأنّ جزءًا من الوقت لا بأس به يذهب أيضاً على الطرقات بين العمل والبيت هذا ما عدا ساعات العمل الطويلة. أرجو ان لا أُفهم انني ضد المساواة بين المرأة والرجل وضد عمل المرأة، بل بالعكس العمل ضروري جدا للمرأة إن كان وظيفةً او عملا تطوعياً في جمعيات خيرية أو للصعود على السُلَّم المهني او العلمي او الفني، هذا كله ضروريّ ونافعٌ للمرأة وللمجتمع وللأولاد بحيث ينظر الأولاد الى أمّهم ويرون فيها أفقاً مفتوحاً على العمل والعلم والخدمة. ولكن هناك واقع علينا اخذه في عين الاعتبار. الاولاد يحتاجون الى وقت وحضور من الاهل، يحتاجون أن يشعروا بأنهم موجودون بعيون أهلهم، أنّهم محبوبون، أنّه هناك من يسمعهم ويخاف عليهم وينصحهم ويرشدهم ويُوعّيهم يوماً بيوم. وإن لم يفعل الاهل هذا الامر بسبب عدم الوعي، أو قَسراً بسبب ضغط الحياة في الغربة، فإنّ الاولاد سوف يضيعون وربما يكون من المستحيل إعادتهم الى رشدهم إذا كان التقصير كبيراً والمشاكل كثيرة.

هذا عدا التمييز العنصريّ الذي يمكن أن يتعرّض له الانسان في العمل او الجامعة او السكن. أما بالنسبة للرعاية من قِبل الكنيسة فلا يرجو الانسان شيئاً، لأنك تجد تحُّزبات في الكنيسة وتمييز بين مؤمن وآخر، والنبذ المتعمَّد والعفوي، والتنمُّر، والتقوقع، والتمييز ضد المرأة، والنظرة الدونيّة تجاهها، والانشغال بمهام ونشاطات خارجيّة من أجل كسب المدخول الى صندوق الكنيسة والترفيه عن المؤمنين وجلبهم الى الكنيسة من خلال هذه الأمور السطحيّة دون تلبية حاجة الانسان الوجوديّة العميقة، الحاجة الى الانتماء الى عائلة الله الواحدة العائلة المتحابّة، أباها الله الواحد يرعى الكل ويحتضن الكل ويُعطي نفسه لكل مؤمن دون تمييز!

يمكن لثقل الغربة أن يكون كبيرًا ثقيلًا وطويلَ الامد بحيث يعيش الانسان عدة انواع من الغربة والإقصاء النفسي والمعنوي والمادي والتشرّد الوجودي، فتختلط عليه الامور ويشعر أنه يخسر هويته ووجوده وكيانه وربما يخسر اولاده!

جزء مهم من الخريطة الجديدة ممكن أن يكون في ايجاد كنيسة

القلب بغض النظر عن أيّ رعية ينتمي اليها المؤمن ويُصلّي فيها، وفي رعاية الانسان لعائلته وللناس من حوله. الناس العطشى الى كلمة محبّة وتشجيع ومرافقة، والايمان بأن الرب موجود في كل مكان يعضد ويرعى بنفسه ويستجيب ويُعين ويُعزي ويُنير ويُقوّي، والأُخوَّة موجودة ويصنعها الانسان بنفسه وايمانه ورِفقه ومحبته بحيث يشعر بأن هناك أناس ينتمي إليهم وينتمون إليه، فلا يبقى بدون انتماء مشتتًا ومشرّدَ الكيان.

جزء مهم من الحل هو الصبر والصلاة والصوم والخدمة المستديمة حسب قدرة وظروف كل واحد ثم الصبر أيضاً وأيضاً، والعمل على حلّ كل مشكلة على حدة، واحدة تلوَ الأُخرى بشكل عمليّ وروحيّ وعلميّ، والتعاضد مع الآخرين والمشاركة في التحدّيات والهموم وايجاد الحلول. والأهم من كل الأُمور هو مرافقة الاولاد والشباب وسماعهم وإرشادهم والحضور الدائم في حياتهم وتعليمهم الايمان القويم لكي تستمر حياة الشعب المسيحي هنا فيكون فاعلًا ومُنفتحًا على الآخر المختلف وشاهد للرب، فلا يذوب ولا يضمحل ولا يتناثر مع مرور الزمن! وهذا هو التحدي الأعظم!!